

المحاضرة الثامنة: الجاحظ (ت:255هـ) ومقولاته النقدية وأثره :

د. غزوان الوردى - الاثنين - 2026/4/19

كان الجاحظ احد اهم علماء العربية في عصره وقد تلا عبدالحميد الكاتب وسهل بن هارون في ظهوره وربما كان لبعض الافكار والاسس النظرية التي اقرها ونظر لها اثراً في شهرته وعلو شأنه وسمو مكانته ومن ذلك مقولته المشهورة (المعاني مطروحة في الطريق).

يرى الجاحظ أنّ اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عامياً وساقطاً سوقياً، فكذا لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى⁽¹⁾.

لقد اهتم الجاحظ بالألفاظ اهتماماً عظيماً أولاًها عناية كبيرة، وقد دفعه هذا الاهتمام إلى أن يقول: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء(الطلاوة)، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"⁽²⁾. [حفظ]

وظن بعض الباحثين أنّه يميل إلى اللفظ كل الميل، وأنّه لا يرى للمعنى كبير أهمية، والواقع أنّه عنى باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام، وشغل بالمعنى والتصوير الأدبي الذي يقول عنه: " فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"، وهذه نظريته التي شرحها **عبد القاهر الجرجاني** وسماها (نظرية النظم)، فالجاحظ اهتم بالألفاظ والمعاني والتصوير مع أنّه يروى أنّ بعضهم لا يحفل إلا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أنّ المعنى متى كان رائعاً حسناً ظل كذلك في أية عبارة وضع. فالببيتان:

لا تحسبنّ الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكنّ ذا ... أفضع من ذاك لذل السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن، وعابه الجاحظ ورأى أنّه مسرف في تقديرهما، وقال: " وأنا رأيت **أبا عمرو الشيباني** (ت:206هـ) وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّ رجلاً حتى أحضره

دواة وقرطاسا حتى كتبهما له، وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبداً، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعرا أبداً"⁽³⁾.

المتأثرين برأي الجاحظ :

عبد القاهر الجرجاني(ت: 471هـ):

لقد اهتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى، ولذلك فليس صحيحاً ما ذهب إليه بعضهم وهو أنّ الجاحظ كرس جهوده لخدمة الألفاظ، ولأجله خاض **عبد القاهر الجرجاني(ت: 471هـ)**⁽⁴⁾ غمار هذا الجراك. ويرى الدكتور محمد مندور أنّ كل آراء **الجرجاني حول مقولة وثنائية اللفظ والمعنى** تنحصر في مسألتين:

الأولى: إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الألفاظ باعتبار تلك الفصاحة صنعة في اللفظ ذاته، ثم ثورته على مذهب أبي هلال العسكري الذي يرد جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

الثانية: تعلية جودة الكلام بخصائص في النظم⁽⁵⁾:

وعبارة الجاحظ " فانما الشعر صناعة، وضرب من النسخ، وجنس من التصوير"، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة، خير ما يفند هذا الرأي، لأنّ عبد القاهر سار على خطا الجاحظ ونقل مصطلحه في التصوير وقال: "وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العرب، وكيفيك قول الجاحظ: وإنّما الشعر صناعة، وضرب من التصوير"⁽⁶⁾.

فالجاحظ من أصحاب الصياغة ولذلك تسقط عنه تهمة الاهتمام بالشكلية والألفاظ، وإن كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداء حسناً، وهذه مهمة الأديب الذي يقدر قيمة الكلام ويبذل في سبيله أعظم الجهود، وقد كان الجاحظ أديباً كبيراً وعالماً قديراً، فعنى بالألفاظ كما عنى بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام.

³ الحيوان، الجاحظ، ج ٣ ص ١٣١.

⁴ **أبو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني** نحوي وعالم لغة؛ عُذ من الثقات وروى الحديث وكان له اهتمام بالشعر حيث جمع أشعاراً لأكثر من ثمانين قبيلة ولد واستقر في الكوفة ثم انتقل بعدها إلى بغداد وظل فيها حتى مماته، كان كوفي المذهب فيما يتعلق بالنحو وهو من أوائل نحاة الكوفي الذين ذهبوا إلى البوادي لتعلم النطق السليم.

⁵ في الميزان الجديد، ص ١٤٩.

⁶ دلائل الإعجاز، ص ٣٨٩.

ابن قتيبة(ت:276هـ):

كان ابن قتيبة عالماً من علماء الكوفة ومؤرخاً وفقيهاً ومحدثاً ، وهو اقرب من تطرق الى هذه الثنائية (اللفظ / المعنى) متأثراً بالجاحظ ومؤيداً ومفسراً لمقولته، فقد تحدث ابن قتيبة (276 هـ) عن الألفاظ، وذكر أنّ الشعر أربعة أضرب:

أولاً: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول الشاعر:

فى كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم

وكقول أوس بن حجر:

أيّتها النفس أجملى جزعا ... إنّ الذين تحذرين قد وقعا

ثانياً: ضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى كقول القائل:

ولما قضينا من منى كلّ حاجة ... ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حذب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائج
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

يقول ابن قتيبة: "هذه الألفاظ كما ترى أحسن شئ مخرج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى، وجدته: ولمّا قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الراجح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأباطح"، ونحوه قول الشاعر:

إنّ الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك لا يزال معينا

غيّضن من عبراتهنّ وقلن لى: ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ثالثاً: ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

رابعاً: ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى فى امرأة:

وفوها كأقاحى ... غذاه دائم الهطل

كما شيب براح با ... رد من عسل النحل

ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة "الفصاحة" في كتابه "الشعر والشعراء" ولكنه استعمل كلمة "الألفاظ"، ويرى أنّ المحدث ليس له أن يتبع المتقدم في استعمال وحشى الكلام ككثير من أبنية سيبويه، ولا أن يسلك فيما يقول الأساليب التي لا تصح في الوزن ولا تحلو في الأسماع. يقول: "وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما ذلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروى وأسهل الألفاظ وأبعدها من التعقيد والاستكراه، وأقربها من أفهام العوام. وكذلك اختار للخطيب إذا خطب والكاتب إذا كتب فانه يقال: "أسير الشعر والكلام المطمع" يراد الذى يطمع فى مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد المتناول"(7)

وفى كتاب ابن قتيبة "أدب الكاتب" حديث عن الألفاظ والأبنية، ولكنه لا يسميها "فصاحة" وإنما هى قواعد يستعين بها الكاتب. وعقد فى كتابه "عيون الأخبار" بابا سماه "كتاب العلم والبيان" تحدّث فيه عن الإعراب والحن والتشادق والغريب والبيان والألفاظ التى تقع فى كتب الأمان والعهود والخطب. وهو فى هذه الأبواب والفصول ليس كالجاحظ الذى أرسى كثيرا من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التى تتردد فى كتب البلاغة والنقد.

اهمية مقولة الجاحظ (المعاني مطروحة في الطريق)

إن مقولة الجاحظ الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق" تمثل حجر الزاوية في نظرية الأدب عند العرب، حيث عبّر من خلالها عن فلسفته في المفاضلة بين اللفظ والمعنى، مؤكداً أن الإبداع الحقيقي لا يكمن في ابتكار الفكرة المجردة، بل في كيفية صياغتها.

وهذا يتأتى من القيمة العالية للفظ العربي وللجملة العربية التي تقدست بأن أصبحت وعاءً دلالياً وجمالياً للنص المقدس وهو القرآن الكريم، وهذا يكمن في اسبقية الاختيار الإلهي للنبوة في زمن كانت اللغة غاية الافتتان الدلالي والاكتمال اللفظي ؛ ولاحقية الجمال البلاغي والدلالي للنص بعد نزوله على نبيينا الكريم محمد (ﷺ).

أثر المقولة وانعكاسها في الوعي البلاغي والنقدي العربي بعد الجاحظ:

إن المعاني لدى الجاحظ هي معاني مشتركة: يرى الجاحظ أن الأفكار والمعاني الكلية (مثل الشجاعة، الكرم، الحزن، الحب والكره والصبر واليأس والبر والجحود.. وغيرها) هي ملك مشاع للجميع ولا يحتاج فهمها إلى عبقرية خاصة.

ويتركز التمايز بين الذين يتعاملون مع اللغة والذين يسعون إلى تحقيق جمالياتها بأقصى صورة ممكنة في "السبك"، فالجاحظ يرى أن الفضل يعود للأديب في "تنسيق" هذه المعاني داخل قالب لغوي محكم، فالشعر عنده "صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"

شيوع رؤية الجاحظ بأسبقية اللفظ، إذ فهم من كلامه أنه يميل إلى تقديم اللفظ على المعنى، معتبراً أن الجمال الفني يتحقق بجودة الصياغة وليس بمجرد صحة المعنى

ووفق ذلك فقد تحققت ابعاداً لتلك المقولة أو النظرية الإشكالية وتتمثل بما يلي:

1- **البعد المعتزلي:** ترتبط نظرية الجاحظ بتجربته ورؤيته المعتزلية التي تعلي من شأن "البيان" والقدرة على التعبير الواضح كأداة للإقناع والحجاج والبرهان .

2- **البعد الجدلي** وحرارك الثقافة والهوية الذي يتمثل بمواجهة الشعبوية: استخدم الجاحظ هذه الفلسفة للدفاع عن فصاحة العرب، موضحاً أن تميزهم ليس في الأفكار التي قد يتشابهون فيها مع الفرس أو اليونان، بل في قدرتهم البيانية الفائقة على صياغة تلك الأفكار.

3- **البعد العلمي** الذي أسس لوعي رصين تمخض عنه نشوء ما عرف لاحقاً بـ "نظرية النظم": فقد مهدت آراء الجاحظ الطريق لعبد القاهر الجرجاني لتطوير "نظرية النظم"، التي ركزت لاحقاً على العلاقات والروابط بين الألفاظ داخل السياق.

من اجترافات الوعي النقدي بعد الجاحظ أنه وصل بعضهم إلى **التوهم بالفصل**، يعتقد بعض الباحثين خطأً أن الجاحظ أهمل المعنى تماماً، بينما يرى آخرون أنه يقصد المعاني "البسيطة" المتاحة للجميع، أما المعاني "اللطيفة" والعميقة فهي تتطلب بياناً خاصاً.

كما أن هذه التجاذبات التي تحققها ثنائية اللفظ/ المعنى، شكلت ما يعرف بـ **مدرسة أنصار الشكل**، إذ أصبحت مقولته هذه منطلقاً لمدرسة نقدية ركزت على "الشكل" اللفظي، وسار على نهجه أدباء مثل أبو هلال العسكري.